العدد 9 لسنة 2023
No. 9 – May 2023
المجلة العراقية للبحوث الانسانية والاجتماعية والعلمية
Iraqi Journal of Humanitarian, Social and Scientific Research
Print ISSN 2710-0952-Electronic ISSN 2790-1254

المدارسُ النّحويّةُ جهودٌ و آراءٌ

الباحث : خميس نصار حمد الدّليمي
طالب دراسات عليا جامعة الجنان

ملخَّص

تباينت آراء المجدّدين تجاه المدارس النّحويّة المختلفة في العصر الحديث، فجاءت آراؤهم تبعاً لمنهجهم في دراسة القاعدة النّحويّة من جهة، ولميلهم إلى بعضها من جهة أخرى، وجاء البحث ليعكس لنا وجهة ابن بلاد الرّافدين الدّكتور مهدي المخزومي في المدارس النّحويّة، وما رآه فيها من جهة نشأتها، و منهجِها في تناول القاعدةِ النّحويّة من منظور جديد. و المدارس النّحوية مصطلح يشير إلي اتجاهات ظهرت في دراسة النحو العربي اختلفت في مناهجها في بعض المسائل النحوية الفرعية وارتبط كل اتجاهٍ منها بإقليم عربي معين فكانت هناك مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة ومدرسة بغداد ولم يكن لهذا الارتباط المكان دلالة علمية خاصة ، ويرى بعض الباحثين أن القدماء لم يطلقوا على مسائل الخلاف في النحو القديم كلمة مدرسة فلم يؤثر عنهم مصطلح المدرسة البصرية ولا مصطلح المدرسة الكوفية ولا مدرسة البغداديين وربما ورد في قولهم مذهب الأخفش ومذهب الفراء ومذهب سيبويه وغير ذلك علي أن المعاصرين استحسنوا لفظ المدرسة فاستعاروها في مادة الخلاف النحوي كما استعاروها في مسائل أدبية أخرى

الكلمات المفتاحيّة : المدرسة، الخلاف، البصرية، الكوفيّة، البغدادية ، الأندلسية، المعاصرون، الإعراب، البناء، القاعدة النحوية، الجملة .

Grammar Schools Efforts and Opinions

Researcher: Khamis Nassar Hamad Al-Dulaimi,
graduate student at Jinan University

ABSTRACT

The views of the innovators differed regarding the different grammatical schools in the modern era. and their inclination towards each other on the other hand, The research came to reflect for us the point of view of the son of Mesopotamia, Dr. Mahdi Al-Makhzoumi, in the grammatical schools. And what he saw in it in terms of its origin, and its approach in dealing with the grammatical rule from a new perspective. Grammatical schools are a term referring to trends that appeared in the study of Arabic grammar. They differed in their curricula in some sub-grammatical issues, and each direction was associated with a specific Arab region. There were the Basra school, the Kufa school, and the Baghdad school. This connection to the place did not have a special scientific significance. Some researchers believe that the ancients did not call the issues of disagreement in the old grammar the word school, and the term visual school, nor the term Kufic school, nor the Baghdadi school, did not affect them. Grammar as they borrowed it in other literary matters

keywords:School, disagreement, visual, Kufic, Baghdadi, Andalusian, contemporaries, parsing, construction, grammatical rule, sentence.

مقدّمة: نشأة المدارس النّحوية وتطورها

تعريف النّحو :

النّحو لغةً: أصل النّحو في اللّغة القصد، وهو ضدّ اللّحن، يقال نحوت نحوه أي قصدت قصده، ونحو الطريق، ونحوَ الجهة، ونحوَ المَثل، ونحوَ المقدار، ونحوَ النوع، وجمعه أنحاء، ونُحُوٌّ [1].

والنّحوُ اصطلاحا :العلمُ بالقواعد التي يُعرفُ بها أحكام أواخرِ الكلمات العربيةِ في حال تركيبها، من الإعراب والبناء وما يتبع ذلك [2]

جعل المعنيون بتاريخ النحو القديم بداية النّحو الكوفيّ موصولةً بأبي جعفر الرؤاسي وإلى مثل هذا ذهب المعاصرون فقد قيل إن لأبي جعفر الرؤاسي كتاباً في النحو واطلع عليه الخليل بن أحمد وانتفع به وكان هذا هو الذي جعل المعاصرين يذهبون إلي التنافس المزعوم بين الخليل والرؤاسي على أنّ من العلم أن نقول أن النحو الكوفي بدأ بظهور أبي جعفر الرؤاسي وقد تتلمذ له الكسائي والفراء وقد ذكر أبو البركات ابن الأنباري أن له كتاب " الفيصل " وكان ثعلب قد أشار إلى أنه أول كتاب في نحو الكوفيين وكتاب " التصغير " وكتاب " معاني القرآن " وأشار ابن النديم إلى أن هذا الكتاب كان يروي إلى أيامه وكتاب " الوقف والابتداء [3]

و إنّ المتتبّع للدّراسات الأصوليّة في النّحو يلمح أنّها قد بدأت بداية بسيطة، وهذه هي سنّةُ النّشوء، وهكذا كانت نشأة علم الأصول، فقد كان النّحاة الأوائلُ يتناولونَ قواعدَ النّحو، وأصولهُ العامّةَ خلال دراساتهم الفرعيّة، والجزئيّة للنّحو، فهذا كتاب سيبويه الذي يُعدّ أقدم نصّ نحويّ وصل إلينا حوى جملة ضخمة من القواعد الأصوليّة وردت منثورة في مباحثه المختلفة، ومنها على سبيل المثال قوله: "اِستعمِل من هذا ما استعملتْه العرب، وأجز منها ما أجازوا، وأجْرِ الأشياء كما أجروْها." "قد يشُذُّ الشيء في كلامهم عن نظائره، ويستخفّ في موضعٍ لا يستخفّونه في غيره."

و لأنّ سيبويه دوّن الأصول في "الكتاب" وجعل منه علماً مكتملاً، وبعضهم يُرجعونه إلى المؤسّسين الأوائل الذين بحثوا في قضايا النّحو بدءاً من أبي الأسود الدّؤلي إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي، والذي يزعم بعض الدارسين: "أنه أوّل من نهجَ الطّريق لعلماء النّحو كسيبويه، والنّظر بن شميل، أن يدرسوا النّحو على أنّه مجموعة من القواعد، والأصول العامّة بمعنى أنّه واضع دراسة علميّة منظّمة.[4]

وربّما كان كتاب (معاني القرآن) للفرّاء من أشهر الكتب التي عُنيت بالأصول العامّة بعد كتاب سيبويه، فقد ضمّ في ثنايا فصوله عدداً وافراً من القواعد الأصوليّة منها قوله: "من شأن العرب الإيجاز، وتقليل الكثير إذا عُرف معناه" "إنّما يُحسن الإضمار في الكلام الذي يجتمع، ويدلّ أوّله على آخره."

والكتب التي أعقبت كتاب سيبويه كلّها نهجت نهجه، فكانت تضمّ إلى جانب البحوث الفرعيّة مباحث أصوليّة كثيرة، ولم تظهر كُتُب خاصّة بأصول النّحو طيلة القرن الثّالث الهجريّ، بل حتّى منتصف القرن الرّابع الهجريّ. أمّا كتاب (الأصول) لابن السرّاج (ت: 316ه)، والذي ظنّ كثير من الباحثين المعاصرين أنّه كتاب أصول حتّى نسبوا لمؤلّفه أنّه هو أوّل من وضع كتاباً خاصّاً بأصول النّحو، فهو في الحقيقة ليس كتاب أصول، وإنّما كتاب نحو عامّ ضمَّ قواعدَ نحويّةً أصوليّةً.

---

[1] المعجم الوسيط ، مجموعة من المؤلّفين ، مادة نحو .
[2] التحفة السنية بشرح مقدمة الأجرومية – محمد محي الدين عبد الحميد – دار الفجر – دمشق ، ص 22

[3] المدارس النحوية - أسطورة واقع – د / إبراهيم السامرائي – دار الفكر – عمان ، ص 56
[4] المصدر نفسه ، ص 69

المبحث الأوّل: التعريف بالمدرسة النَّحْوية:

المدرسة النَّحْوية ما هي إلا آراءٌ اتَّفقَ عليها مجموعة من الدَّارسين، ثمَّ اعتنقها آخرون، وقال آخرون: إنَّها الاشتراك في وجهة النَّظر الّتي تتألَّف منها الجهة العلميَّة، وترتبط تلك الوجهات على رأيٍ واحد .[5]

فالمدارس النَّحَوية اتّجاهاتٌ ظهرت في دراسة النَّحْو العربيّ أخذت منحىً خاصَّاً بها، واصطبغت بفكر مؤسّسيها، والمدارس النَّحْوية الَّتي درسها المعاصرون والمجدِّدون لم تتمتَّع كلّها بمنهج مستقل عن الآخر فكلُّ مدرسةٍ بنت منهجها على مدرسةٍ أخرى إمَّا تأييداً، أو نقداً، فلذلك رأينا أنّ المجدّدين كأمثال المخزوميّ أيّدوا المدرسة الكوفيَّة تأييداً لأفكارها المختلفة الَّتي طرحتها في ميدان النَّحْو، وإذا سألنا أنفسنا سؤالاً ما المنهج المختلف في النَّحْو بين المدارس الَّتي طرحت آراءها في ميدان النَّحْو ؟ لوجدنا أنَّ ما ميَّز كلَّ مدرسة عن الأخرى هو معارضتها، أو احتجاجها من ناحية، وتبنّيها آراء مدرستين، فتأخذ من كل واحدة ما تراه صحيحاً، وهذا في منهج دراسة النَّحْو العربيّ لا يُعدُّ منهجاً مستقلاً نطلق من خلاله على تلك الآراء المتناقضة أو المؤيّدة اسم المدرسة، فالمدرسة النَّحْوية الحقَّة هي من وضعت لنفسها منهجاً خاصَّاً غير مبنيٍّ على جهود السابقين، منهجاً يصل إلى نتائج تتوّج ما بناه السابقون، أمَّا ما رأيته في المدارس الَّتي تناولتها في معرض حديثي عن رأي الدّكتور مَهدِي المخزوميّ، فرأيت أنَّها بنت أفكاراً ولم تبن منهجاً يُعرِّف بهدفها وما ترمي إليه، وفي ذلك أصلُ إلى نتيجة مفادها أنّ المدارس النَّحْوية الّتي درست النَّحْو العربيّ جمعت الأصول النَّحْوية كما فعلت المدرسة البصريَّة، وعارضت مدرسة الكوفة بعدها رأيها معارضة جوانب عدّة، لتأتي باقي المدارس جامعة جزءاً من هنا وجزءاً من هناك في اتّفاق على صحَّته أو نقدٍ له .

المبحث الثاني: المعاصرون والمدارس النَّحْوية:

اقتصرت آراء المعاصرين على وجود المدرسة البصريَّة فقط دون غيرها من المدارس، ومنهم من حصر المدارس النَّحْوية في البصريَّة والكوفيَّة، ومنهم من أضاف المدرسة البغداديَّة كأحمد أمين ومحمّد الطنطاوي، وسعيد الأفغاني والدّكتور مكي الأنصاري مصنّفين المدارس الأخرى في جهود نحاة خدموا العربيّة والدَّرس النَّحْوي، مع نكرانهم أن ترتقي هذه الجهود إلى ما يسمى مدرسة نحوية قائمة بذاتها، ومنهم من جعل المدارس النَّحْوية أربعاً هي: البصريَّة والكوفيَّة والبغداديّة والأندلسيّة كطه الرّاوي، ومن المعاصرين من صنَّف هذه الجهود في مدارس نحويّة، وأثبت وجود المدارس الأخرى كالمصريّة والمغربيّة، والأندلسيّة كشوقي ضيف الَّذي جعل المدارس النَّحْوية خمساً هي: البصريَّة، والكوفيَّة، والبغداديّة، والمصريّة، والأندلسيّة، وكما أيّد بعض المعاصرين وجود المدارس النَّحْوية، أنكر آخرون هذه المدارس كالدكتور محمد موعد من جامعة دمشق وذلك في مقال له بعنوان " ابن خروف والدَّرس النَّحْوي في الأندلس " فرأى أنّ النَّقد الَّذي وجهته بعض المدارس لأخرى لا يبنى عليه مدرسة نحويّة مستقلّة [6]

يقول الدكتور / ابراهيم السامرائي " لقد عَرفت الكوفة كما عَرفتُ البصرة فكلتاهما مصران قد مصرهما المسلمون واشتهر كلٌّ منهما طوال التاريخ الإسلامي وشغلتا مكاناً واضحاً في القرنين الثاني والثالث وكان لكل منهما أثرٌ في السياسة فقد عُرفت الكوفة بعلويتها كما عرفت البصرة بعثمانيتها وكان أهل المصريين على اتصال فيما بينهم وأنت لا تعزم أن تجد بصريين قد استوطنوا الكوفة مركزاً من مراكز العلم كما كانت البصرة ولسنا على يقين تام في سبق البصريين وانصرافهم إلى العلم على الكوفيين إلا من

[5] أبو زكريا الفرَّاء ومذهبه في اللُّغة والنَّحْو، أحمد مكي الانصاري، ص352، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، القاهرة 1964م .

[6] نحاة الأندلس وجهودهم في الدَّرس النَّحوي، رسالة ماجستير للباحثة صافية كساس، ص28

ذلك في العلوم اللغوية فقد عرف النحو في البصرة قبل الكوفة وقال أيضاً " إن النحو الكوفي بدأ بظهور أبي جعفر الرؤاسي وقد تتلمذ له الكسائي والفراء

وقال الأُستاذ شوقي ضيف " تركت الكوفة للبصرة وضع نقط الإعراب في الذكر الحكيم ووضع نقط الإعجام والأنظار النحوية والصرفية الأولى التي تبلورت عند ابن أبي اسحاق والتي أقام عليها قانوني القياس والتعليل وكانت في شغل عن كل ذلك بالفقه ووضع أصوله ومقاييسه وفتاواه وبالقراءات وروايتها رواية دقيقة مما جعلها تحظى بمذهب فقهي هو مذهب أبي حنيفة وبثلاثة من القراء السبعة الذين شاعت قراءتهم في العالم العربي وهم عاصم وحمزة والكسائي

نشأ النَّحْو العربيّ، ونشأت معه مذاهبه المتنوّعة فمن البصرة إلى الكوفة فبغداد فالأندلس لتنشأ بعدها مدارس نحويَّة امتازت بخصائصها وتفرّدت بآرائها، وتعدّ مدرسة البصرة النَّحْوية تاريخيّاً الأولى بين المدارس النَّحْوية فهي من وضعت أصول نحونا وقواعده، فالدّكتور شوقي ضيف يرى أنَّ المدرسة البصريَّة هي أمُّ المدارس وكلُّ مدرسة إنَّما هي فرع لها وثمرة تالية من ثمارها[7]، وهذا الرأي للدكتور شوقي ضيف يؤكّد أن النَّحْو العربيّ نشأ بصريّاً أوَّلاً ثم تتابعت عليه الدراسات، والآراء تبعاً للأماكن المختلفة فظهرت حينها المذاهب المختلفة في نحونا العربيّ، وهذا يشير إلى أن الآراء التي تلت مدرسة البصرة إنَّما كانت ثمرة جهود نحاة البصرة، وليس شيئا جديداً أو مختلفاً، فالخليل بن أحمد الفراهيديّ كما ذكر الدّكتور شوقي ضيف هو المؤسِّس الحقيقيّ لمدرسة البصرة النَّحْوية، ولعلم النَّحْو العربيّ بمعناه الدّقيق من سماع وقياس، وبعدها جاء تلميذه سيبويه الَّذي تمثل آراءه تمثُّلاً رائعاً .[8]

بعدها جاءت المدرسة الكوفيَّة عند الكسائيّ وتلميذه الفرَّاء اللذَين استطاعا أن يستحدثا في الكوفة مدرسة نحويّة تستقل بطوابع خاصة من حيث الاتساع في الرواية، ومن حيث بسط القياس وقبضه، وتوسّع الفرَّاء كان في تخطئة بعض العرب، وإنكار بعض القراءات الشاذة، ويُعدُّ الفرَّاء من وجهة نظر شوقي ضيف إمام الكوفيّين، فثعلب وغيره إنَّما كانوا شارحَين لآرائه ومفسرَين [9]، فالمدرسة الكوفيَّة زمنيّاً جاءت بعد المدرسة البصريَّة، والنَّحْو العربيّ كانت قد توضّحت معالمه في كتاب سيبويه، وجهود مدرسة الكوفة كانت توسّعاً لآراء نحاة البصرة، وتعديلاً لبعض الآراء التي جاء بها نحاة البصرة، فجهودهم كانت تمثّلاً لآراءٍ أحبّوا أن يضيفوها إلى خزانة النَّحْو العربيّ هذا العلم الواسع .

وتبعاً للأمصار والمدن، ولنشاط العلماء وبحثهم في ميدان العربيّة الواسع نشأت المدرسة البغداديّة على يدَي عالمَين من علماء العربيّة وهما: أبو علي الفارسي وابن جني، وأغلب أخذهم كان عن المدرسة البصريَّة، فكانا كثيراً ما يكنيان عن البصريّين في مصنّفاتهما باسم (أصحابنا) مما جعل كثرة المعاصرين تظنُّ أنهما بصريّان حقّا، وفي الحقيقة هما صوَّرا نزوعهما الشديد للبصريين، فكانت آراؤُهم مزيجاً بين المدرسة البصريَّة تارةً، والكوفيَّة تارة أخرى، إضافة إلى ابتكار بعض الآراء الخاصة التي نُسبت بعدها إلى المدرسة البغدادية، ويرى الدكتور شوقي ضيف أنَّ المدرسة البغداديّة تداولها جيلان: جيل كانت تغلب عليه النزعة الكوفيَّة، وهو الَّذي يدور في كتابات ابن جنّي باسم البغداديّين من أمثال ابن كيسان، ثمّ جيل ثان خلف هذا الجيل كانت تغلب عليه النزعة البصريَّة كالزجاجي وأبي علي الفارسي [10]. فمدرسة بغداد نقلت لنا جهود المدارس السابقة، مع تمسك كل جيل بنزعة خاصة .

فالدّكتور شوقي ضيف في نظرته إلى المدارس النَّحْوية أطلق تسمية، وتقسيم تلك المدارس حسب البيئات المكانيَّة، فلا نرى منهجاً محدَّداً لكل مدرسة، إنَّما كان التقسيم عنده نابعاً من جانبين اثنين:

---

[7] المدارس النَّحْوية، الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، الطبعة الثالثة، ص 5

[8] المدارس النَّحْوية، الدكتور شوقي ضيف ، ص5

[9] المرجع نفسه ، ص 6

[10] المدارس النَّحْوية، الدكتور شوقي ضيف، ص 6+7

الأوَّل: البيئة المكانيَّة: (البلد الَّذي نشأ فيه مُؤسِّس المدرسة): فما نشأت دراساتُه في بغداد سمي بالدَّرس البغدادي، مع العلم أنَّ البيئة المكانيَّة لا تعطي طابعاً نحويَّاً للدرس النَّحْوي، فيجب أن تتلاقى الأسس الَّتي بنيت عليها المدرسة، مع المكان الَّذي نشأت فيه، ونلاحظ أنّ الدُّكتور شوقي ضيف أطلق تقسيمه للمدارس النَّحْوية تسليماً بنشوئها المكاني .

الثَّاني: التسليم بمؤسسي المدارس، ومذهبهم من ناحية، ونشوئهم وتأثرهم بالمدارس الأخرى من ناحية أخرى، فالمدرسة البغداديّة كما أوضحها الدّكتور شوقي ضيف كانت في مؤسسيها وأفكارها قريبة جداً للمدرسة الكوفيَّة.

وفي القرن الرابع الهجري ظهرت المدرسة المصريّة التي رأى الدّكتور شوقي ضيف أنّها كانت في أول نشأتها شديدة الاقتداء بالمدرسة البصريَّة، ثمّ بعدها أخذت تمزج بين آراء البصريّين والكوفيّين، وضمّت سريعاً إلى تلك الآراء آراء البغداديّين، وسرعان ما تكامل ازدهارها في العصر المملوكي بما أتاحه لها ابن هشام من ملكاته العقلية ومن إحاطته بآراء النُّحاة السالفين له على اختلاف مدارسهم وبلدانهم، إضافة إلى قدرته البارعة في مناقشة الآراء

فالمدرسة المصريَّة بجمعها ما بين المدرستين البصريَّة والكوفيَّة، وعدم إتيانها بشيء جديد في ميدان النَّحْو العربيّ، فهذا الأمر من وجهة نظري لا يسوّغ تسميتها كمدرسة مستقلَّة، فالمدرسة النَّحْوية هي الَّتي أتت بقواعد ناظمة للدَّرس النَّحْوي، و ميَّزت التطوُّر الَّذي أوجدته في ميدان النَّحْو، وإذا كان الدَّكتور شوقي ضيف قد أوضح أنّ المدرسة المصريَّة جمعت بين المدرستين البصريَّة والكوفيَّة، فتسميتها جاءت من بيئتها المكانيَّة لا من الخصوصيَّة الَّتي تفرَّدت فيها في الدَّرس النَّحْوي .

فالدُّكتور عبد الأمير الورد ذكر تاريخ المدارس النَّحوية وأوضح أنَّ هذه المدارس قد نسبها الأقدمون إلى البلدان الَّتي نشؤوا فيها فابن سلَّام الجمحي ذكر أنَّ لأهلِ البصرة في العربيّة قدمةٌ، وبالنَّحْو ولغات العرب عنايةٌ .[11]

والمدارس النَّحْوية في بادئ الأمر كان يُطلق عليها اسم المذاهب، لكن في العصر الحديث أخذ المحدّثون يطلقون عليها اسم المدرسة، وأوَّل من استخدم هذا الاسم المستشرقون الَّذين درسوا اللُّغة، ومنهم " جوتولد فايل " الَّذي أورد في مقدّمة كتاب الإنصاف تعبير المدرسة البصريَّة، والمدرسة الكوفيَّة.[12]

فالمخزوميّ كانت دراسته لمدرسة البصرة مقتصرة على رأسها وهو الخليل بن أحمد ولِما قدّمته من خدمات كان لها الأثر البارز في تطوّر الدَّرس النَّحْوي في ذلك العصر، فسلّط الضوء على المدرسة البصريَّة من زاوية وحيدةٍ وهي جهود الخليل، ولم نرَ له رأياً، أو تأييداً لقضيّة نحَتْ منحى الدّراسة البصريَّة، فأغلب آرائه كانت تنحو منحى الدّراسة الكوفيَّة، وخاصة في رسالته الّتي أعدّها لنيل درجة الدّكتوراه حيث حملت عنوان (مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللُّغة والنَّحْو)، فظهرت فيها آراؤه المختلفة في قضايا كثيرة لامست الدَّرس النَّحْوي كالإعراب والبناء والعوامل، ومصطلحات الدَّرس النَّحْوي لدى الكوفيّين، وفي كل قضيّة – كما سنرى – كان للمخزومي تأييد لها، فوجهته كانت كوفيّة خالصة .

وبعدها رأى مَهدِي المخزوميّ في المدرسة البغداديَّة مزيجاً بين مدرستين هامّتين أسّستا علم النَّحْو وهما المدرسة البصريَّة والمدرسة الكوفيَّة فقال: " فالدَّرس النَّحْوي في بغداد منذ بداية القرن الرّابع لا يمثّل اتّجاهاً واحداً أو مذهباً واحداً، بل يمثّل اتّجاهين مختلفين سارا في خطّين متوازيَين إلى أن تغلّب الاتّجاه البصري في بغداد في عصورهما المتأخرة لغلبة الفكر الكلامي والفلسفي على الدَّرس النَّحْوي حتّى لم يعد

[11] المدارس النَّحْوية بين التصوُّر والتصديق، د عبد الأمير محمَّد أمين الورد، المكتبة العصريَّة، بغداد، ص 7

[12] نفسه، ص 9

له صلة بالدَّرس اللُّغويّ ."[13]، فالمدرسة البغداديّة كما رآها المخزوميّ لم تحمل آراءً خاصة بها، أو شيئاً جديداً للنحو العربيّ، إنّما حملت عقليّة بصريّة تابعة للفكر الكلامي والّذي قصد فيه فكر أرسطو .

المبحث الثالث: آراء المدارس النّحويّة

أوّلاً: المدرسة البصريَّة وأصولها:

مثّلت مدرسة البصرة بالنّسبة لمجددي النّحو المدرسةَ الأولى الّتي نشأ النَّحْو العربيّ فيها، ثمّ ما لبث أنْ تطوّر على يد الخليل بن أحمد الفراهيديّ، ودارسين آخرين، فيقول في مقدَّمة كتابه مدرسة الكوفة: " ورأيت – كما رأى القدماءُ – أنَّ النَّحْو في أوَّل نشأته بصريٌّ، تعاون على إنمائه دارسون بصريُّون، حتَّى انتهى إلى الخليل، فحمل العبء أكثرَه؛ وهيَّأت له ثقافته الواسعة، وعقليَّته النَّافذة، أنْ يكون رأس مدرستين، تتمم إحداهما الأخرى".[14]

فانقسام المدارس كما أشار المخزوميّ إلى بصريَّة وكوفيَّة جاء بعد أن أسّس البصريُّون النَّحْو، وتابعه الخليل وغيره، فحديث المخزوميّ عن مدرسة البصرة في مدخل كتابه مدرسة الكوفة جاء بعد أن أنهى رسالة الماجستير، والّتي حملت عنوان: (الخليل بن أحمد الفراهيديّ أعماله ومنهجه)، والّتي تحدّث فيها عن جهود الخليل في النَّحْو والصرف، وعلم الأصوات، فأشار إلى ضرورة الحديث عن المدرستين ليعرف الدّارس الفروق بينهما، والأسس الّتي قامت عليها كلّ منهما، وقد برز موقِف مَهدِي المخزوميّ من المدرسة البصريَّة وأصولها منذ بداية تفكيره النَّحْوي في رسالة الماجستير الّتي تناولت الحديث عن الخليل، وبعدها في رسالة الدّكتوراه الّتي فصّل الحديث فيها عن مدرسة الكوفة لكنّه عقد مقارنةً بين المدرستين، وأوضح ذلك في مقدَّمة الكتاب فقال: " لهذا رأيت أنْ أعقد فصلاً أتناول فيه بإيجازٍ مصادر الدّراسة البصريَّة، والنَّهج الَّذي انتهجه البصريُّون فيها، ليسهل على الدَّارس أن يوازن بين المنهجين، ويقارن بين الدّراستين ."[15]

اعتمد البصريون في مادة منهجهم العلمي على الأفصح من الألفاظ والأسهل منها على اللسان ولذلك اختاروا من بين القبائل التي اعتمدوا عليها القبائل المقطوع بعراقتها في العربية، والمصونة فطرتهم من رطانة الحضارة الأجنبية فاختاروا من العرب قيساً وتميماً وأسداً فأخذوا أكثر قواعدهم من هؤلاء في اللغة والإعراب والتصريف ثم اخذوا من هديل وبعض كنانة وبعض الطائيين، ولم يأخذوا عن حضري ولا من سكان البراري ممن كان يجاور الأمم الأخرى ومن هنا رفضوا الأخذ من لخم وجذام لمجاورتهم أهل مصر، ولم يأخذوا من قضاعة ولا من غسان ولا من إياد لمجاورتهم أهل الشام، ولا من النمر لمجاورتهم اليونان، ولا من بكر لمجاورتهم النبط والفرس .[16]

كان البصريون يختبرون سلامة لغة من يشكون في أمره، ممن سبق من القبائل الفصيحة ويروي ابن جني في ذلك فيقول: ومن ذلك ما يحكي أن أبا عمرو بن العلاء استضعف فصاحة أعرابي يسمى: أبا خيرة لما سأله فقال: كيف تقول: استأصل الله عرقاتهن ؟ ففتح أبو خيرة التاء من عرقاتهن فقال له أبو عمرو: هيهات أبا خيرة لأن جلدك وهذا يعني أن اللحن أو ما يشبه ذلك نُميَ إلى الأعراب، لأن أبا عمرو كان قد سمع أبا خيرة يروي الشاهد بالكسر، فلم يتردد في مؤاخذة أبي خيرة، وهو أحد الأعراب الذين أُخذت عنهم اللغة، باللحن وذلك لتقدمه في السن وطول مخالطته لأهل الحواضر .[17]

---

[13] الدَّرس النَّحْوي في بغداد ص10

[14] مدرسة الكوفة، مَهدِي المخزوميّ، مقدمة الكتاب

[15] مدرسة الكوفة، مَهدِي المخزوميّ ، مقدّمة الكتاب

[16] المدارس النّحويّة ، شوقي ضيف ، دار صادر ، بيروت ، الطبعة الأولى ، 1987، ص 48

[17] المصدر نفسه ، ص 56

اشترط البصريون فيما ينقل عن العرب الكثرة الكاثرة فيقعدون على الأكثر وإلا فعلى الكثير، وإلا فعلى القليل، وإلا فعلى الأقل، وإلا فعلى النادر، وإلا قاسوا الأشباه على الأشباه، والنظائر على النظائر إذا لم يتناقص مع الوارد ولذا اعتبر سيبويه قياس فعولة بفعيلة في النسب إليها بحذف حرف المد وقلبِ الضمةِ فتحةً وإن لم يرد منها إلا شنيئاً في النسب إلى شنوءه، لأنه لم يرد ما يخالفها فإذا ما خالف الوارد ما سبق من قياس أولوه أو اعتبروه شاذاً يحفظ ولا يقاس عليه وقد ينكرونه أو يقولون إنه ضرورة [7]لا بدَّ أن نتّفق على مفهوم (المدرسة)، فبنظرنا أنّها مجموعة من الآراء يتواضع عليها مجموعة من الناس، تُشكّل رؤيةً ما، لهم طريقة في التفكير مميزة، فينهجون منهجاً للوصول إلى هدفٍ ما .

والمدارس النحوية مصطلحٌ يشير إلى اتجاهاتٍ ظهرت في دراسة النحو العربي، اختلفت في مناهجها في بعض المسائل النحوية الفرعية، وارتبط كلّ اتجاه منها بإقليمٍ عربيٍ معيّن، فكانت هناك مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة، ومدرسة بغداد وهكذا . ولكنّ بعض العلماء لم يضعوا على تلك المدارس اسم (مدرســـة) واستندوا برأيهم على مفهوم المدرسة، ووحّدوا أنّ كلّ تلك المدارس تسير نحو هدفٍ واحد، ورؤيةٍ واحدة، وهي النحو العربي، بثوابت كثيرةٍ ومشتركةٍ فيما بينهم، وما كان اختلافهم إلاّ الشيء القليل بفروعٍ صغيرة، أحياناً ما وصلت تلك الاختلافات بالرأي إلى توسعة دائرة الخلاف بين المدارس دون وجود مسبّبٍ أو مبرّر لذلك الخلاف لذلك أطلقوا عليها اسم المذاهب، أي: مذهب البصرة ومذهب الكوفة ونحو ذلك ويميلُ الرأي لدينا إلى هؤلاء العلماء، بحيث تُسمّى كلُّ تلك المذاهب باسم المدرســة النحويــة العربيــة، بينما العديد من المعاصرين استحسنوا لفظ المدرسة فاستعاروها في مادّة الخلاف النّحوي، حتى في مسائل أدبية أخرى فاستخدامنا كلمة مذهب لأنّها تطلق على الطريقة التي سار عليها أحد النّحاة أو عن الخلاف النحوي بشكلٍ عام، فنقول مذهب البصرة والكوفة، وكذلك مذهب سيبويه والكســائي لأنّ بالأصل كما ذكرنا سابقا أنّ اختلاف المذهبين البصريّ و الكوفيّ كان في الفروع فقط، أما الأصول فقد اتفق عليها جمهور العلماء دون خلاف أحدهــم .[18]

والذي يدُلّ على ذلك أنّ من الممكن أن يوافق بصريٌّ كوفياً، وبالعكس، بعدة آراء، خاصة إذا كان الرأي موافقا منهج النحويّ ومما يدلّــل على ذلك أيضا خلوّ كلمة (مدرسة) من التراث العربي القديم بأن تدلّــل على المنهج النحوي، والأمثلة على ذلك كثيرة، فمنهم مثلُ ابن النديم يخصّص باباً في كتابه يُفردُ للكلام في النحو وأخبار النحويين واللغويين من البصريين، وكذلك عند الكوفييــن .

وكذلك الزبيدي فقد وضع النحويين واللغويين في طبقات، ابتدأها بطبقات النحويين البصريين وصنّفهم إلى عشر طبقات وهكذا .

أمّا المدارس اللسانية الحديثة، ففعلاً يحقّ لنا تسميتها بهذا الاسم، لأنّ أغلب المدارس في جوهرها وأصولها تختلف عن بعضها البعض، كلّ مدرسة بنشأتها و أسباب نشأتها تُخالف المدرسة الأخرى، وحتى بهدفها المستقبلي تخالف تلك المدرسة .

وبهذا الأمر تميّزت المدرسة النحوية العربية القديمة بمحافظتها على الأصل والثابت، وبذلك وُحّدت الجهود للوصول إلى الهدف الأسمى وهو خدمة لغة القرآن الكريم .

ومن هنا فارتباط تلك الدراسات القديمة وعلى رأسها المدرسة النحوية بالقرآن الكريم، يجعلها خالدةً إلى قيام الساعة بخلود القرآن الكريم الذي هو عقيدة الأمة الاسلامية، و هو الذي أكسب اللغة العربية الشرف الأسمى لها، وجعل دراستها من العقيدة و الاهتمام بها أيضا من العقيدة .[19]

ثانياً: المدرسة الكوفيَّة وأصولها:

---

[18] لمدارس النّحويّة ، شوقي ضيف ، دار صادر ، بيروت ، الطبعة الأولى ، 1987، ص 69

[19] لمدارس النّحويّة ، شوقي ضيف ، دار صادر ، بيروت ، الطبعة الأولى ، 1987، ص 61

كانت المدرسة الكوفيَّة المدرسة المثاليّة في النَّحْو العربيّ، وعدّ الدّارسون أنّ المذهب البصري بالرّغم من اتّساعه وبسط سيطرته على بيئات الدَّرس النَّحَوي بقي المذهب الكوفي فارضاً سيطرته محتفظاً بأصالته حتّى في أعلام المذهب البصري.

ومهدي المخزوميّ يرى أنَّ المدرسة الكوفيَّة أسَّسها الكسائيّ والفرَّاء، وتمثَّلا منهجاً مغايراً لمنهج المدرسة البصريَّة، فالمخزوميّ يؤكد أنَّ الرؤاسي ليس له بين أقوال الكوفيّين إلا القليل النادر، وهذا القليل ليس من النَّحْو إنما من الحكاية والرواية .[20]

ومدرسة الكوفة النَّحَوية كما رآها المخزوميّ لا تبتدئ بزمن معيّن، لأنَّ الحركات العقليّة ليست مما يؤرّخ بزمن محدّد، ينصُّ فيه على بدئه وختامه، فالمدرسة الكوفيَّة بدأت بالكسائيّ الَّذي يُعدُّ النَّحْويَ الأوّلَ في الكوفة، والَّذي رسم للكوفيين معالم الدَّرس النَّحْوي، وكان الخليل بن أحمد الفراهيديّ المصدر الَّذي استقى منه الكسائيّ، حيث لقّنه صناعة الإعراب، وعلم النَّحْو.

والكوفيُّون أنفسهم كما قال المخزوميّ: " لم يكونوا يعرفون تسميتهم بالكوفيّين، ولم يسمِّ أحدهم مذهبه بالكوفي، ولو استعرنا أقوال الدّارسين الأوّلين لم نسمع أحداً منهم كان قد سمّاهم بهذا الاسم، وإذا أرادوا أن يشيروا إليهم على أنّهم بغداديون أو عراقيون، حتّى المبرّد نفسه كان إذا تحدّث عنهم سمّاهم بالبغداديّين ."[21]

فمدرسة الكوفة كما رآها المخزوميّ تمثّلت بنشاط قدّمه علماء في اللُّغة والنَّحْو، أُطلق عليهم فيما بعد بالكوفيّين، وهم أنفسهم لم يكونوا يعرفون هذه التّسمية، فالتّسمية جاءت من البيئة المكانيّة .

والمرجع الأساسي- كما رأى المخزوميّ - لدى الكوفيّين كان كتاب معاني القرآن للفرّاء، ففيه روايات في القراءات، ومعاني القرآن، ونوادر أدبيّة، وغريب ألفاظ، وأقوال نحويّة منثورة لا يربط موضوعاتها رابط، والسبب في ذلك هو أنّ النُّحاة الأولين لم يكن لهم تفكير فلسفي منظّم، والسبب الآخر هو أنّ أكثر الكوفيّين كان يجالس الخلفاء، ويقوم بتأديب أولادهم، وطبيعة عملهم تؤدّي على هذا المزج.[22]

والمخزوميّ خصَّ دراسته لمدرسة الكوفة بعد دراسة مدرسة البصرة النَّحْوية، الَّتي أفرد للخليل بن أحمد الفراهيديّ وأعماله في رسالة الماجستير الّتي سبقت دراسته للكوفة في رسالة الدُّكتوراه والَّتي حملت عنوان (مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللُّغة والنَّحْو)، فتأثُّره بمدرسة الكوفة كان واضحاً في نظرته للعامل، والمنطق اليونانيّ الَّذي رآه مسيطراً على مدرسة البصرة النَّحْوية.

كما خصّ المدرسة الكوفيَّة في كتابه (الدَّرس النَّحْوي في بغداد)، وأطلق عليها المدرسة البغداديّة، فلم يميّز المخزوميّ بين المدرسة الكوفيَّة والمدرسة البغداديّة فقال: "فالبغداديّون إذن هم الكوفيُّون، وطريقة البغداديّين في الدَّرس النَّحَوي هي طريقة الكوفيّين، ولم تمثّل البغداديّة مذهباً يختلف عن مذهب الكوفيَّة، فالمذهب واحد، والطريقة واحدة ."[23]

فالمدرسة الكوفيَّة باتساع نطاقها المكاني أخذت تسميتَين، وبقي المضمون واحداً كوفيّاً بين الكوفيَّة والبغداديّة، وتتبع المخزوميّ أئمّة مدرسة الكوفة في دراسة النَّحْو، وكان الكسائيّ أوّل من عُني به لأنّه كان

---

[20] مدرسة الكوفة ص79/78

[21] الدَّرس النَّحْوي في بغداد ص 231

[22] مدرسة الكوفة 163

[23] الدَّرس النَّحْوي في بغداد 9

إمام الكوفيّين، ولأنّه لم يتأثّر بالفلسفة الكلاميّة تأثّراً مباشراً، فهو لم يتّصل بآراء المتكلّمين، ولم يقف على شيء من الثقافة الأجنبيّة .[24]

فالمدرسة النَّحوية كي تأخذ وجودها في تقعيد اللُّغة يجب أن يكون لها منهجها المختلف الَّذي تعالج فيه قضايا اللُّغة بمنظورها الخاص، والتَّداخل الَّذي وجدته عند المخزوميّ بين المدرسة الكوفيَّة والبغداديَّة، فكانت التَّسمية المختلفة نسبةً إلى المكان، و المخزوميّ فصل ما بين المدرسةِ الكوفيَّة والبغداديَّة، في التَّسمية، وجعلهما تشتركان في المنهج، وهذا التَّعدّد فقط كان في التَّسمية، فمنهجهما في نظر المخزوميّ منهجٌ واحد .

عدّ مَهدِي المخزوميّ مدرسة الكوفة مدينةً في تقدّمها العلمي إلى المدرسة البصريَّة، فالدّراسة الكوفيَّة في نشأتها أخذت عن البصريّين الأوائل، من دون أن يكون ذلك الأخذ نقلاً، فقد كان طابعهم العلمي بارزاً في القضايا التي استمدوها من البصريّين، فقال: " فقد برز فيها طابعهم العلميّ الخاص، فكان لهم في الأصول الّتي استمدّوها تغيير وتعديل، وكان لهم فيما تلقّوه زيادات، بل لقد حاولوا إعادة النَّظر فيها، والرّجوع إلى مصادرها الأولى، ليرجعوا بنتائج إذا اتّفقت مع ما رجع البصريّون به في بعض الوجوه، فقد اختلفت عنها في بعض الوجوه "[25]

والكسائيّ عَلَمٌ من أعلام المدرسة الكوفيَّة، رأى في جهوده المخزوميّ أصولاً مرتبطةً بجهود الخليل بن أحمد الفراهيديّ، لكنّه كان له رأي مستقلٌ فيها، فلم يتقبّل النتائج الّتي توصّل إليها أستاذه فكانت له آراء مختلفة عن الآراء الّتي تبنّاها أستاذه الخليل[26]

فالكسائيّ بعد انتهائه من التّلمذة، وترؤسه حلقات الدَّرس النَّحْوي في بغداد، كان له منهجان متباينين ؛ الأوّل منهج مقيّدٌ بالنقل، وليس للعقل من سلطان عليه، وهو منهج أهل القراءة، القائم على الرواية، ومنهج مقيّد بالعقل حاول فيه إخضاع النّقل لأحكامه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وهو منهج أهل العربيّة القائم على القياس .[27]

وللكسائي عناية بالقياس، ويعلل مَهدِي المخزوميّ ذلك بأنّه أثر من آثار المدرسة البصريَّة، لكنّه كان يختلف عنهم في أنَّه كان يكتفي بالشاهد النّادر ليقيس عليه، لذلك لحنه البصريُّون، لأنّه لم يلتزم بقواعد سماعهم، واتّهموه بإفساد النَّحْو، ولكنّ المخزوميّ ردَّ هذا الاتّهام راداً ذلك لفساد أصول البصريّين، ويمضي في ذلك المخزوميّ عرضاً الأصول التي اتبعها الكسائيّ منتصراً له إذا خالف البصريّين، مؤيّداً إيّاه في القضايا الّتي توافق الدّراسة الكوفيَّة، لكنّنا نراه يسوّغ للكسائي إخراج الحديث الشريف من مصادر الاحتجاج، وذلك بسبب تأثّره بالبصريّين، وعدّ ذلك غريباً ويحتاج تأمّلاً، فالكسائيّ في منظور المخزوميّ لم يستطع أن يتخلص من آثار شيوخه البصريّين، فكان يعتمد على كثير من آرائهم واتجاهاتهم، وكان يوافقهم، ويوافق الخليل بن أحمد خاصّة في مسائل كثيرة خالفه الكوفيُّون فيها من بعد ومنها: [28]

1- لن: اقتفى الكسائيّ أثر الخليل في عدّها مكوّنة من لا و أن
2- محل أن المصدريّة وما بعدها . وذلك بعد حذف الخافض كما في قولهم: عجبت أن تقدّم على هذا، وعده الكسائيّ محلّه الجر تمثّلاً برأي الخليل

---

[24] مدرسة الكوفة 113

[25] مدرسة الكوفة ص 329

[26] المصدر نفسه ، ص330

[27] نفسه 112

[28] مدرسة الكوفة 118

3- ما في قولهم: " نعمّا هي " فهي عنده معرفة تامّة بمعنى الشيء، وهو في هذا يقول بمقالة سيبويه: " وغسلته غسلاً نعمّاً، أي نعم الغسل "[29]

4- لا يجوز ترخيم ما كان على ثلاثة أحرف، وهذا كما رآه المخزوميّ مذهب الخليل وسيبويه .

فالكسائيّ في رأي المخزوميّ مؤسّس المدرسة الكوفيَّة ؛ لأنّه أول كوفي خرج على أصول البصريّين، وخالفهم في الكثير من آرائهم، فغيّر كثيراً من أصولهم [30]

والمخزوميّ حين يعرض المآخذ على الكوفيّين كاستبعادهم الحديث النّبوي من مصادرهم، يعلل ذلك بأن انشغالهم بالقراءات ورواية اللُّغة كفاهم مؤونة البحث عن الحديث الشريف، لذلك رجح مذهب الكوفيّين، لأنّهم كانوا أقرب إلى طبيعة اللُّغة في درسهم النَّحْوي، فالمخزوميّ كما هو واضح عرف بميله للكوفيين، وعدَّهم الأقرب إلى طبيعة اللُّغة العربيّة، ونراه كثر حماسة في تناوله الدَّرس النَّحَوي عند الكوفيّين، فأصول الدَّرس النَّحَوي الكوفي كما رآها المخزوميّ تمثّلت بتنوّع مصادر السماع، وعنايتهم بالقياس، وإخضاعه للعقل، كما تحرروا من قيود الفلسفة والمنطق، ورفضوا التعليلات الّتي لا علاقة لها بالدَّرس النَّحَوي، فهذه الخصائص التّي رأيناها من خلال دراسة المخزوميّ لمدرسة الكوفة تضع مدرسة الكوفة في مرتبةٍ فاقت فيها باقي المدارس، وذلك لما حملته من آراء جديدة بعيدة عن الفلسفة، والحقُّ أنّ مدرسة الكوفة كانت نتاجاً حيّاً لمدرسة البصرة، واستمدّت منها أصولها كما رأينا ذلك في أصول الكسائيّ، ومن ثمَّ فإنّ تعصّب المخزوميّ لمدرسة الكوفة أرى فيه تعصّباً لها أكثر مما هو رأي مستقل مبني على أسس واضحة، والله تعالى أعلم .

ثالثاً: المدرسة البغداديّة:

أوضح المجدّدون أنّ المدرسة البغداديّة كانت المنافس الأقوى للمدرسة البصريَّة، فمنافستها لم تكن كمدرسة نحوية، إنّما كانت كمِصرٍ أي كبلدٍ، وذلك فيما بعد عرفت بالمدرسة الكوفيَّة فقال: " أمّا الكسائيّ والفرَّاء وثعلب وأصحابهم وتلاميذهم فلم يسمَّوا بالكوفيّين ولم يسمُّوا هم أنفسهم بهذا الاسم، ولم يسمِّهم البصريُّون الأوائل به أيضاً، لأنّ الكوفة مصراً لم تعرف درساً نحوياً مستقلاً يقف بإزاء الدَّرس البصري، ولم تكن منافسة للبصرة في الدَّرس اللُّغويّ عامة، والمصر الّذي وقف ينافس البصرة هو بغداد .." .[31]

ومدرستا الكوفة وبغداد مدرسة واحدة، واستدلّ المحدثون على هذا من ابن جني في كتاب الخصائص، فقد كان يورد اسم البغداديّين، والكوفيّين، ولم يرد بهما جماعتين مختلفتين " فالبغداديون إذن هم الكوفيُّون، وطريقة البغداديّين في الدَّرس النَّحَوي هي طريقة الكوفيّين، ولم تمثل البغداديّة مذهباً يختلف عن مذهب الكوفيَّة، فالمذهب واحد والطريقة واحدة ." .[32]

ومن وجهة المخزوميّ، فإنّ النّقلة العظيمة التي شهدتها بغداد في الحضارة والفكر، قد مهدت أذهان الدّارسين لتقبّل النَّحْو البصري، فالدَّرس النَّحَوي في بغداد ظلَّ يسير في اتّجاهين متوازيين للبصريين والكوفيّين إلى أن تغلّب المذهب البصري في بغداد لغلبة الفكر الكلامي والفلسفي على الدَّرس النَّحْوي[33]، فالبغدادية كما رآها المخزوميّ مالت إلى الفكر الكلامي الفلسفي، و من ثمَّ فهي أقرب للمدرسة البصريَّة منها إلى الكوفيَّة .

---

[29] الكتاب ، سيبويه ، الجزء الأول ، ص37

[30] مدرسة الكوفة ، ص119

[31] الدَّرس النَّحْوي في بغداد 8

[32] نفسه ص9

[33] الدَّرس النَّحْوي في بغداد ص 10

وفي جانب آخرَ نرى مهدي المخزوميّ يصنّف المدرسة البغداديّة بأنّها مذهبٌ وسط ما بين الكوفيَّة، والبصريَّة، فهو يرى أنّ اسم البغداديّين تردّد في مؤلّفات المحدثين، وهم يريدون بهم جماعة من الدّارسين يمثلون مذهباً خاصاً لا هو بالبصري ولا هو بالكوفي، وإنّما هو مذهب يقوم على الانتخاب من كلا المذهبين، وقد نشأ هذا المذهب من تلاقي المذهبين القديمَين في بغداد .[34]

فالبغداديّة في طرح الدّارسين هذا تلاقت من جهود المدرستين معاً، لأنَّ جهود النَّحْو العربيّ بدأت بصريّة وكوفيّة، ثمّ تتالت الدراسات آخذةً من جهودهما جهودها النَّحْوية فيقول المخزوميّ: " وقد نشأ المذهب من تلاقي المذهبين القديمين في بغداد " .[35]

والبغدادية كما رآها المخزوميّ في موضع آخر من كتابه الدَّرس النَّحْوي في بغداد هي ذاتها المدرسة الكوفيَّة، فيؤكّد أنّ سبب تسمية البغداديّين بالكوفيّين هو أنّ مؤسِّس مذهب البغداديّين في النَّحْو أبو الحسن علي بن حمزة الكسائيّ، وهو إنَّما وُلد ونشأ، وتعلّم وعرف قارئاً، ورئيساً في القراءة بعد حمزة بن حبيب الزيّات في الكوفة ولم يخرج من الكوفة ليتعلّم العربيّة على يد شيخ العربيّة في البصرة الخليل بن أحمد الفراهيديّ إلا على كبر، ولم يعُد إلى الكوفة إلا بعد رحلة طويلة في بوادي نجد والحجاز و وهو يشافه الأعراب .

والدكتور شوقي ضيف رأى أنَّ المدرسة البغداديّة إنَّما هي تداخل آراء ما بين المدرستين البصريَّة والكوفيَّة، فنحاة بغداد اتّبعوا نهجاً جديداً في دراساتهم ومصنّفاتهم النَّحوية يقوم على الانتخاب من آراء المدرستين، ويرى الدّكتور شوقي ضيف أنّ ما هيّأ لهذا الاتّجاه أنّ أوائل النُّحاة تتلمذوا للمبرّد وثعلب وبذلك نشأ جيل يحمل آراء مدرستيهما، وأشار الدّكتور شوقي ضيف أنّ بعض الباحثين المعاصرين حاول أن ينفي وجود المدرسة البغداديّة وذلك لان الباحثين في هذه المدرسة أرجعوا بحثهم إلى جهود المدرسة البصريَّة، فابن جني مثلاً كثيراً ما أطلق على البغداديّين اسم الكوفيّين، وكأنهم مدرسة واحدة [36]، وهذا عائد إلى أنّ جمهور الجيل الأول من البغداديّين كانت تغلب عليه النزعة الكوفيَّة، وهم: ابن كيسان (299هـ"، وابن شقير (ت 319هـ)، وابن الخياط (ت 320هـ)، فشوقي ضيف يصل إلى أنّ المدرسة البغداديّة إنّما اتَّجهت اتِّجاهين، اتّجاهاً مبكراً عند ابن كيسان، وابن شقير وابن الخياط نزع فيه أصحابه إلى المدرسة الكوفيَّة، وأكثروا من الاحتجاج لها، مع فتح الأبواب لكثير من آراء المدرسة البصريَّة، وأيضاً مع فتح باب الاجتهاد لبعض الآراء الجديدة، واتّجاهاً مقابلاً عند الزجاجي، ثم عند ابن علي الفارسي وابن جني، نزع فيه أصحابه إلى آراء المدرسة البصريَّة، وشوقي ضيف يرى أنَّ هذا الاتجاه هو الاتِّجاه الّذي ساد فيما بعد ليس فقط في المدرسة البصريَّة إنما في جميع البيئات الّتي عنيت بدراسة النَّحْو [37] والمخزوميّ يرى أنَّ الدكتور شوقي ضيف تمحّل في جعله ابن كيسان والزجاجي وأبي علي الفارسي وابن جني أعلاماً للمدرسة البغدادية التي رآها متوهمة، فحكاية هؤلاء عن الكوفيّين، أو اختيارهم بعض آرائهم لم تفصلهم عن النَّزعة القويّة التي تشدهم إلى البصريّين، فابن النَّديم عدّ ابن كيسان من الجماعة التي خلطت بين المذهبين [38]

فالمخزوميّ ينتقد الدّكتور شوقي ضيف في أنّه لم يستطع أن يثبّت رأيه في المدرسة البغداديّة، ولذلك لم تستوِ حجّته، واستعرض رأي (كوتولد فايل) الّذي يرى أنَّ طريقة البغداديّين كانت في أساسها بصريّة، فهم لم يكوّنوا مدرسة ذات اتّجاه خاص، بل مثّلوا دراسة في دائرة النَّحْو البصري، فيرى (فايل)

---

[34] الدَّرس النَّحْوي في بغداد ص

[35] 191 نفسه

[36] المدارس النَّحْوية شوقي ضيف، ص 245

[37] المدارس النَّحْوية ص248

[38] الدَّرس النَّحْوي في بغداد ص 236

أنَّ البغداديّين إنَّما ذكر اسمهم في المواضع الّتي خالفوا فيها البصريّين [39] فالمخزوميّ يؤكِّد أنَّ البغداديّين نحاة لهم اجتهادهم في مجال النَّحْو، ولكنّ هذا الاجتهاد لا يخرجهم من دائرة المدرسة البصريَّة الّتي استمدّوا منها آراءهم وأفكارهم، و مخالفتهم لبعض الآراء الّتي تبنّاها البصريُّون لا يخرجهم عن دائرة المدرسة البصريَّة فقال المخزوميّ منتقداً الدّكتور شوقي ضيف: " وقد نسي الدكتور شوقي ضيف أو تناسى أن الدّارس الَّذي ينتمي إلى مذهب من المذاهب، ربما كان له وجهة نظر خاصة يخالف بها أصحابه في المسائل ولا يخرجه ذلك عن دائرة المذهب الَّذي ينتمي إليه، وأمثلة هذا أكثر من أن تحصى، فقد خالف سيبويه أستاذه الخليل في بعض المسائل .."."[40]

فالمدرسة البغداديّة مدرسة حاولت أن تضيف شيئاً جديداً في المنهج والأسلوب يضاف إلى ما قدّمته المدرسة الكوفيَّة، وهذه المدرسة لم تأخذ بعداً في ميدان مدارس النَّحْو، فالبصريَّة، والكوفيَّة هما المدرستان اللّتان درستا النَّحْو وتابع الدَّارسون منهجهما تحليلاً ودراسةً، ويبقى رأي مَهدِي المخزوميّ في هذه المدرسة ناتجاً عن عدِّها تابعةً للمدرسة الكوفيَّة، فما أضافه البغداديّون كان تابعاً لما درسه الكوفيُّون، والدَّارسون كما رأينا عدّوها تابعةً للكوفيّة، وهذا ما انتقده المخزوميّ في رأي شوقي ضيف، في أنَّ المدرسة البغداديّة كانت لها نظرتها الخاصّة في النَّحْو، وما قدَّمته كافٍ لعدّها مدرسة لها منهجها، وعلماؤها .

رابعاً: المدرسة الأندلسيّة:

بدأ النشاط النَّحَوي في الأندلس بعد فتح الأمويين لبلاد الأندلس واستمرّ منذ عام 138هـ حتّى عام 422هـ على يد طبقة كبيرة من المؤدِّبين الَّذين كانوا يُعلِّمون الشباب في قرطبة وغيرها من الحواضر الأندلسيّة مبادئ العربيّة عن طريق مدارس النّصوص والأشعار، ودفعهم إلى ذلك حفاظهم على القرآن الكريم وسلامة لغته وتلاوته، فكان أكثر نحاة الأندلس من قرّاء الذكر الحكيم، وكان كثيرٌ منهم يرحلون إلى المشرق فيتلقّون هذه القراءات، ويعودون إلى موطنهم فيرسمونها للناس بجميع شاراتها كما يرسمون لهم العربيّة بمقوّماتها اللُّغويَّة، والأندلس اعتمدت في دراستها للنّحو العربيّ على النَّحْو الكوفي مقتديةً بنحويّها الأوّل " جودي بن عثمان " .[41]

ويذكر الدكتور مَهدِي المخزوميّ أنّ مذهب الأندلسيّين أو مذهب المصريين أو غيرهما مذاهب لا وجود لها إلا في أوهام القائلين بها، المرسلين القول مزاعم ومدعيات لا تنهض بها حجّة ولا يقوم عليها دليل [42]، وفي موضع آخر نرى المخزوميّ يقارن ما بين الدَّرس النَّحْوي في الأندلس وبين الدَّرس النَّحْوي في المشرق، فالبيئة الثقافيّة مختلفة ما بين المشرق الَّذي ورث القياس والفقه، وورث فلسفة المتكلّمين، أمَّا الدَّرس النَّحَوي في المغرب فورث السلفيّة التي عنيت بالنّقل أكثر من عنايتها بأحكام العقل، ولذلك كانت كتب أبي حيّان والَّذي عاصروه تعتمد في سعتها وكثرة مجلداتها على النّقول من المصنفات المختلفة سواء أكانت بصريّة أم كوفيّة، فكانت كلُّ تلك النّقول إلى الجمع، والإحاطة بعلم الأولين[43]، فالأندلسيّة عند المخزوميّ ما هي إلا نشاط نحوي جمعه لغويّو الأندلس عن المدارس الأخرى البصريَّة، والكوفيَّة، وهذا الجمع والنّقل لا يرتقي إلى تصنيف جهد نحاة، الأندلس إلى تسميّة ما نقلوه، وصنّفوه في اسم مدرسة مستقلّة، وهذا الرأي صائب، لأنَّ المدرسة يجب أن تؤسِّس علماً جديداً له مقوّماته الخاصّة، ولا تعتمد على جهود السابقين، فكان النُّحاة الأندلسيّون بعد أن يدرسوا النّصوص والأشعار يتجهون إلى المشرق لطلب

---

[39] الدَّرس النَّحْوي في بغداد 240

[40] الدَّرس النَّحْوي في بغداد، ص 24

[41] المدارس النَّحْوية، شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، الطبعة الثالثة، ص 290/289

[42] الدَّرس النَّحْوي في بغداد ص10

[43] الدَّرس النَّحْوي في بغداد ص163

المزيد من العلم، وكان يدفعهم إلى ذلك حرصهم على القرآن الكريم، وسلامة لغة التجويد في تلاوته وطبعه [44].

فسيرة النَّحْو الأندلسي رسمها المجددون في أنّها نحو سار على النّهج البصري فقال في عرضه النشاط النَّحْوي في الأندلس في كتابه (الدَّرس النَّحْوي في بغداد): " وسار الدَّرس النَّحَوي هذه المسيرة الرتيبة وتعاقب الدّارسون وهم يتَّسمون بأنهم ينزعون نزوعاً بصريّا واضحاً، يلاحظ الدّارس ذلك حين يستعرض الشيوخ الَّذين أخذوا عنهم، والمصنّفات الَّتي صنفوها، حتى يكاد النَّحْو عندهم لا يتجاوز حدود ما رسمه المبرد والزجاج والزجاجي وأبو علي الفارسي وأصحابهم "[45] فالمخزوميّ خلال استعراضه النشاط النَّحْوي في الأندلس نراه يعرض لنا نحاة الأندلس وأسماءهم وطرق نقلهم النَّحْو عن المدرسة البصريَّة، فلم يذكر أيَّ شيءٍ جديد أضافه النُّحاة الأندلسيون لما نقلوه في نحوهم عن المدرسة البصريَّة، فالجهود النَّحَوية لنحاة الأندلس حتى الزبيدي لم يضيفوا شيئاً إلى النَّحْو المشرقي الَّذي أخذوا نحوهم عنه فقال: " لم يكن بينهم من أضاف إلى النَّحْو المشرقي شيئاً، أو نزع منزعاً ليس بالبصري ولا بالبغدادي الكوفي " .[46]

فالأندلس كما رآها المخزوميّ عرفت النَّحْو الكوفي أوّل عهدها، ثم بعد ذلك عرفت الدَّرس البصري، ثمّ نشأت طبقة من الدّارسين نهجت نهجاً بغداديّاً بتعمّقها في مصنفات البصريّين والكوفيّين [47]

نتائج البحث

1- المدارس النَّحويَّة كانت في فكر المجددين كشوقي ضيف و مهدي المخزومي هي من أرست قواعدها في النَّحو العربي استناداً إلى آرائها الّتي تبنّتها .
2- مهدي المخزومي كرافض للعامل النَّحوي وفكرة العمل غدا في مسافةٍ بعيدة عن المدرسة البصريَّة، فآراؤه في المدرسة البصريَّة كانت من جانب الانتقاد لمنهجها وارتباطها بنظريّة العامل
3- كان المخزومي ميَّالاً للمدرسة الكوفيّة، ومعالجتها للقضايا النَّحويّة، وتمثّلت آراؤه في المدارس النّحوية المختلفة بالوصف والتأريخ، ومن ثمّ يعرض دراستها لبعض القضايا، ويكون رأيه دائماً موافقاً لما جاء به الكوفيُّون،
4- استطاعت المدارس النّحويّة أن تجسّد من خلال آرائها الهدف الذي أرادت بناءه من خلال القضايا النّحويّة التي مثّلتها و التي كانت دليلاً على آرائها في النّحو .
5- وفي نهاية الحديث تبقى المدارس النّحويّة على اختلاف تسمياتها منهلاً يستقي منه طالب العربيّة مادّته في دراسة النّحو، وما الخلافات بينها إلا حول المنهج، ويبقى الجوهر واحداً بين جميع المدارس في أساس العربيّة ونحوها .

مصادر ومراجع البحث

1. الإنصاف في مسائل الخلاف بين النَّحْويّين البصريّين والكوفيّين، الأنباريّ، ، ت محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة، 1961.
2. الدرس النحوي في بغداد، مهدي المخزومي، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1987.

[44] الدَّرس النَّحْوي في بغداد ص 175
[45] الدَّرس النَّحْوي في بغداد ص 181
[46] نفسه ص 186
[47] نفسه ص 245

3. الخلاف النَّحْوي، محمد خير الحلواني، دار القلم العربيّ، حلب، رسالة ماجستير قدّمها لجامعة بغداد، 1971
4. الخليل بن أحمد الفراهيدي، أعماله ومنهجه، مهدي المخزومي، دار الرائد العربي، بيروت لبنان، ط2، 1986،
5. أعلام في النحو العربي: د. مهدي المخزومي، دار الحرية، بغداد 1980 ضمن الموسوعة الصغيرة .
6. الفراهيدي عبقري من البصرة، مهدي المخزومي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط2، 1989م
7. المدارس النَّحْوية، شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، الطبعة الثالثة .1968
8. مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللُّغة والنَّحْو، د. مَهدِي المخزوميّ، دار الرائد العربيّ، بيروت، ط6، 1406هـ /1986مـ
9. في النحو العربي نقد وتوجيه، مهدي المخزومي، دار الرائد العربي، بيروت، ط2، 1982.
10. في النحو العربي قواعد وتطبيق، مهدي المخزومي، دار الرائد العربي، بيروت، ط2، 1406هـ / 1986مـ
11. مهدي المخزومي وجهوده النحويّة، رياض السواد، دار الراية، عمّان، الأردن، ط1، 2009.